بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

أكثر الباحثون في الغرب الأوروبي قديماً وحديثاً، التعليق على نتائج معركة بلاط الشهداء حيث عجز المسلمون بعد هذه المعركة عن متابعة حركة الفتح داخل أوربا الغربية، وإنَّ هذا العجز أنقذ الحضارة الأوربية ومثلها الأخلاقية القائمة على مفاهيم الكنيسة الكاثوليكية، فما مدى صحة هذه الأطروحة؟ وهل كان في أوروبا الغربية حضارة من أي نوع ومستوى؟، وهل امتلكت الكنيسة الكاثوليكية أية مثل أخلاقية سواء نظرية أو تطبيقية؟.

في الحقيقة إن إخفاق العرب في معركة بلاط الشهداء حرم أوربا من نور الهداية إلى الوحدانية، وزاد من غرقها في عصور الظلام وانعدام الحضارة، ثم إن الكنيسة الكاثوليكية افتقرت كلياً إلى المثل والأخلاق من جميع الجوانب، ولأن هذا ما حدث خلال العصور الوسطي، انطبع الغربيون بأخلاقيات، وسلوكيات، وآمنوا بأفكار وعقائد دفعوا هم ثمنها الباهظ خلال تلك العصور، لكن لأنهم جبلوا عليها وغدت شبه غريزة لديهم، دفعت الإنسانية ـ وما تزال تدفع ـ خلال التاريخ الحديث نتيجة للسياسات الغربية الثمن المرتفع لذلك دماً، وشقاء، وظلماً، واستغلالاً، واستعباداً، طرداً من الأوطان وحرماناً، والحال مازال مستمراً، ومثلما ادعى الغربيون القدماء من الصليبيين أنهم قدموا للحج إلى الضريح المقدس، وفي سبيل ذلك قتلوا بداية: أهل أنطاكية، ومعرة النعمان، والقدس، واستمروا يقتلون ويدمرون لمدة قرنين، ثم هم قدموا الآن باسم الديمقراطية والحرية، فقتلوا بوساطة الأسلحة الحديثة الآلاف من الأبرياء، وما يزالون يقتلون، وصدق الله تعالى في قوله الكريم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلاً ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ

﴿تَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ تُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف 103/ 104/ 105].

وكثرت في العصر الحديث الأبحاث حول تاريخ أوربا في العصور الوسطى، وتناولت هذه الأبحاث الشؤون السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، وتحدثت عن تطور مؤسسات الكنيسة الكاثوليكية، غير أنها لم تركز على الجوانب المظلمة من هذه الشؤون، وقليلاً ما وقفت عند القيم والمثل الأخلاقية الإنسانية مما شكل ثغرة واسعة.

وحديثاً حاولت الباحثة هيلين إيلربي سد هذه الثغرة، في كتابها "الجانب المظلم في التاريخ المسيحي"، الذي ترجمته من الإنكليزية، وأقدم له اليوم، وتعيش الكاتبة الآن في أمريكا، لكنها كانت قد ولدت في بيروت، ونشأت في المملكة العربية السعودية، وأمضت بعضاً من حياتها في ألمانيا وجاء ذلك بعد إكمالها لدراستها الجامعية.

وهذا الكتاب وثيقة بالغة الخطورة والأهمية، فيها تصوير علمي موثق لدور الكنيسة الكاثوليكية في الحياة الأوربية، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث، وهو دور نتج عن ظلام الشرك، وعلى هذا الأساس نمتلك شهادة لا تدحض على أن أوربا حرمت من الأخلاق والسعادة والهداية، وتخبطت بالظلام نتيجة لما حدث في معركة بلاط الشهداء، وسوف تظل هكذا ومعها الإنسانية، ما لم تعتنق الإسلام، لأن الدين عند الله الإسلام، ولا يصلح زمان ولا مكان بدون الإسلام.

وتطرقت الباحثة في كتابها الموثق إلى تطور تاريخ المسيحية، وليتها تعمقت فبحثت فيما ألم بالمسيحية منذ أن قام شاول اليهودي بإعادة صياغتها، فأبعدها عن جوهر التوحيد، وأغرقها بالغنوصية المتهودة فجعلها ديانة باطنية تأويلية، ومع ذلك فإنَّ حديثها عن تدوين الأناجيل الأربعة، واعتماد هذه الأناجيل من قبل مجمع نيقية عام 325م مهم وواضح، فقد ترأس هذا المجمع الامبراطور قسطنطين الكبير، وكان ما يزال وثنياً، فجعل من المسيحية أداة من أدوات العمل السياسي، ومطية لأهواء

الساسة ومطامعهم، وأسهمت أمه هيلانه بعد ذلك في إكمال مشروعه حين وضعت أسس طقوس المسيحية خاصة ما تعلق بالتثليث وعبادة الصليب.

وفي الحقيقة إن هذا موضوع بالغ الأهمية، أنا عازم - إن شاء الله - على التعامل معه بشكل علمي محض، لأنني أمتلك قناعة، وإيماناً أن الدين كان ومازال أهم القوى الفاعلة في حياة البشر، وأنَّهُ يحق للباحث الخوض في ميدان التأريخ الديني، مثلما يحق له البحث في ميادين التاريخ السياسيّ والاقتصادي، والفكري وغير ذلك كثير، وهذا الميدان هو الأكثر خصباً في أيامنا ولاسيما في الغرب الأوربي والولايات المتحدة، هذا ومقرر أن كل بحث لا يلتزم الحيادية، والروح الأكاديمية، لا يمكن عدّه بحثاً تاريخياً، والتعلل بأن الأبحاث في العقائد والديانات تثير الحساسيات والفتن هراء، وبعيدٌ عن الصحة، لا بل طالما هناك رغبات جامحة في التخلق بالحرية الفكرية والديموقراطية، فالبحثُ العلمي في مجال العقائد والديانات خير وسيلة نحو التخلق بالفكر الحر.

ومنذ قرون سعى رجال الاستشراق - وجلهم من رجال اللاهوت - إلى التعامل المغرض وغير النزيه مع الإسلام، في سبيل إقناع المواطن الغربي الباحث عن مخرج لما هو فيه، بالابتعاد عن نور الإسلام، ولهذا ركّز المستشرقون بدايةً على البحث عن تناقضات في العقيدة الإسلامية فأخفقوا فالتفتوا نحو الاهتمام بتاريخ الفرق وحركات الشقاق للوصول إلى محصلة، أنها دليل على التناقض، وأغفلت هذه الأبحاث مسألة أن الإسلام انتشر أولاً في البقاع الأقدم حضارة في التاريخ والكون، حيث جميع العقائد والديانات السماوية والوضعية مثل: المسيحية، واليهودية، والبوذية، والزرادشتية والمانوية، وعقائد الصابئة، والدهرية، والميثراوية، والغنوصية إلخ، ولأن الإسلام آمن بحرية العقيدة فقد دخل رجال دين هذه الديانات في معارك فكرية خصبة مع الفكر الإسلامي، فكان الإخفاق الكامل لهم، والنجاح المتواصل والمطرد للإسلام، لذلك لجأ بعضهم إلى العمل التآمري، والتمرد فكان ذلك ما اعتاد المستشرقون على تسميته بالتناقضات.

إن الإسلام أساسه القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وجميع أعمال بني البشر تقاس على معيار القرآن والسنة، وليس العكس هو الصحيح، العكس هو ما كان في سيرة شاول اليهودي، والامبراطور قسطنطين وأمه هيلانه والبابوات، ومحاكم التفتيش، والكتاب الذي أقدم له حافل بالشواهد الموثقة.

وراجت في أيامنا أحاديث طويلة عن صراع الحضارات، وقصد من هذا كله الصراع بين الإسلام وبين عقائد الغرب التي هي كلاسيكية وثنية - يهودية - مسيحية، ومنذ عام 1095م حين أعلن البابا أوربان الثاني عن قيام الحروب الصليبية، وهذا التيار الغربي العقائدي يصارع الإسلام بشتى وسائل القتل والتدمير والتضليل، وحصد ومازال يحصد الإخفاقات، ومقبول الحديث عن الحوار، وليكن هذا الحوار فكرياً حراً، من دون تهديد أو إكراه، وسوف نجد المحصلة الإسلام، وعندي أنه آن الأوان أن يتخذ المسلمون من أسلوب الحوار البناء أسلوباً للدعوة إلى الإسلام، والهداية إلى نور الوحدانية، وأن نطلب من الطرف المحاور لنا التوقف إلى الأبد عن إنشاء حركات إرهابية تتخذ القتل وسفك الدماء أسلوباً لها، لأن الإسلام حرص - ومازال - كل الحرص على الحياة الإنسانية الكريمة، ففي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: 32]، وقال جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: 70]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: 13]، وفي حجة الوداع قال صلى الله عليه وسلم مخاطباً الناس: "إن الله قد حرم عليكم دمائكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم"، وكرر ذلك أكثر من مرة.

والمسلم لا يعرف في سلوكه الضغينة ولا الكراهية، ويتبع السيئة الحسنة، فتمحوها، والمسلم الصحيح هو الذي يضرب المثل الأعلى بالسلوك الأخلاقي القويم، ويحب الناس جميعاً، لأن هدفه الأسمى هداية البشرية إلى نور الوحدانية الخالصة، ومن استهدف الهداية كان سلاحه الوحيد هو المحبة والألفة والاعتدال،

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه المجيد واصفاً نبيه الكريم: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: 159] .

ولقد بحثت مطولاً في تاريخ العقائد والديانات، وأنا منشغل منذ سنوات في تاريخ الحروب الصليبية، ولقد تبين لي من جملة كثير من الأمور أن المسيحية في بلاد الشام نزلت بها أقسى ضربة في تاريخها بسبب الحروب الصليبية في الشام الشمالي والجنوبي والساحلي، لأن الغربيين استهدفوا قتل المسلمين والمسيحيين الشرقيين الهراطقة، فضلاً عن هذا كان من حسن حظ المسيحيين عموماً الذين عاشوا في دار الإسلام، أنهم نجوا بفضل الإسلام من الاضطهاد الذي كان منتشراً قبل الإسلام، وأنهم لم يعانوا مثلما عانى الناس في أوربا خلال العصور، لأنهم نعموا بالحرية والأمن، والرفاه، والسمو الثقافي والمعرفي، وأتمنى على الكتاب المسلمين عرض تاريخ المسيحيين في ظل الإسلام، وتقديمه موثقاً إلى الغربيين وإلى بني البشر جميعاً، وبهذا العمل نكون قد أسهمنا بإكمال ما قدمته الباحثة في كتابها الذي توليت ترجمته، فهي قد أرخت للجانب المظلم في ظل الكنيسة الكاثوليكية ثم البروتستانتية، ونحن علينا أن نؤرخ للجانب المضيء في ظل حكم الإسلام.

وألحت المؤلفة في كل مكان من كتابها على النظام الطبقي الكهنوتي المتسلسل، أي النظام الهرمي ودوره في صنع الجانب المظلم، وقالت في آخر الكتاب: إنَّ نظام العناصر المتنوعة هو المقبول الآن علمياً في فيزياء الكم والمادة، وفي المعامل والمصانع والشركات، وجميع المجالات، فالعنصر الواحد لا ينتج طاقة، والطبقية الكهنوتية لا تسمح للعقل بالعمل، وهي ضد الحرية، وهي أساس الدكتاتورية والتمييز العنصري القائم على الجنس واللون، وبات من المقرر الآن في الكهرباء أن الطاقة والنور يتولد من اللقاء بين عنصري السالب والموجب، لا بين سالبين أو موجبين.

وفي الحقيقة إن نظام عمل العناصر المتنوعة هو نظام إسلامي، فنحن نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[الحجرات: 13]، فمن الذكر والأنثى جاء البشر ومثل ذلك جاء نور الكهرباء من السالب والموجب، وإنه إذا التقت العناصر المتنوعة لتتعارف في ظل التقوى، تنتج طاقات باهرة لصالح الإنسانية، وهذا ما حصل بعد قيام الإسلام، فكان من محصلاته حركة الفتوحات التي لا نظير لها، ثم الحضارة العربية الإسلامية، التي أسهم في إنتاجها مسلمون عرب، وفرس وترك وخراسانيون، وروم، وأفارقة، وديلم، كما شارك في صنعها غير المسلمين من مختلف الملل والنحل، وبوجود القرآن والسنة الصحيحة، والتجربة التاريخية، يمكن الآن معاودة العمل مجدداً.

لم يكن من السهل التعامل مع نص هذا الكتاب لكثافة معلوماته ودقتها، وأملي كبير أن يكون التوفيق قد حالفني، وأن تحصل الفائدة المرجوة منه، والحمد لله أولاً وآخراً، ومن الله جلت قدرته ألتمس دوماً الهداية والإرشاد، والعون والتوفيق، والأجر، سبحانه إنه على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على نبي الهداية، وسيد ولد بني آدم، المصطفى، وعلى آله وأصحابه ومن لزم بنهجه وسيرته.

سهيل زكار

دمشق 20 محرم 1426

2005/3/1